ابن فضلان ورحلتُهُ الريادية
إلى بـلاد البلغـار والصقالبة على نهر اتل (الفولجا) سـنة
309 هـ / 921 م

أ.م.د.محمد كريم إبراهيم الشمري

المقدمةُ

يهـدف هـذا البحـثُ إلى إبراز دورِ رحلة ابن فضلان في ترسـيخ وشـائج الاتصـال بين العرب والمسـلمين مع الأمم والشـعوب الأخرى، انطلاقًا من رسالة الإسلام العالمية في التعامل الانساني مع الآخر . وقد ركَّزَ البحثُ على العلاقة بين العرب والمسلمين متمثلًا بالخلافة العباسية، والبلاد المتاخمة لها في آسيا الوسطى والأصقاع النائية مثل : حوض الفولجا، متمثلة بعدد من شعوبها وقومياتها، أبرزهم البلغار (الروس) والصقالبة والخزر.

تضمنـت خطـة البحث، بعد الخلاصـة والمقدمة، ثلاثة مباحث، تضمن المبحث الأول دراسـة مختصرة عن : ابن فضلان، شخصيته وما قيل عنه . أما المبحث الثاني فتناول موضوع الاهتمام بنشر رحلة ابن فضلان، من خلال إبراز جهود المسـتشرقين والعرب المسـلمين بهذا الخصوص، وتوثيق رحلة ابن فضلان في المصادر الجغرافية .

وكان المبحـث الثالـث وهو الأخير عن : رحلة ابن فضلان، بتقسـيمه على ثلاثة محاور، الأول: الرحلة، أسبابها ومسارها، والثاني : تأثيرات رحلة ابن فضلان، والثالث : أهمية الرحلة ونتائجها.

المبحث الأول
ابن فضلان : شخصيته وما قيل عنه

قبل دراسة رحلة ابن فضلان واثرها لابدّ لنا من التعريف بشخصيته، فهو: أَحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد [1]، كما هو مثبت تحت رسالته المعنونة : رسالة ابن فضلان، المسماة: كتاب أَحمد بن فضلان [2]، مولى أمير المؤمنين الخليفة العباسي أبو الفضل جعفر (المقتدر بالله) بن المعتضد، ثم مولى محمد بن سليمان بن المنفق فاتح مصر الذي شتت الطولونيين ودخلها سنة 292هـ وقتل سنة 304هـ [3]، ونستشف مما ورد في رسالة ابن فضلان انه مولى محمد بن سليمان ورسول المقتدر إلى ملك الصقالبة، وذكر الحموي[4] أيضًا أنَّهُ مولَى أمير المؤمنين أي الخليفة العباسي المقتدر بالله ثُمَّ مَولَى محمد بن سليمان، فهو من العجم الموالي لذلك العصر في الأعمّ الأَرجح.

ولما كنا نعاني من نقص شديد في المعلومات عن شخصية ابن فضلان؛ لعدمِ وقوفنا على ترجمة وافية له في كتب التاريخ والتراجم والجغرافية، بل لم نَرَ سطرًا واحدًا يُشير إليه بِوُضُوح، سِوَى اسمِهِ فقط : أَحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، وأنَّهُ – كما ذكرنا – مولَى أمير المؤمنين المقتدر بالله العباسيّ ثُمَّ مولَى محمَّد بن سليمان فاتح مصر، فإننا لا نستطيع الجزم حول أصل ابن فضلان، واستِنادًا إلى مَا ذَكَرهُ ابن فضلان[5] نفسه، فإنَّنَا نميل إلى الاعتقاد بغير ذلك، إذ نقل الينا قول ملك الصقالبة (البلغار) مُخَاطِبًا إيَّاه ومُعَرِّضًا بأصحابه، بما نصه : « إنما أعرفك أنت، وذلك أنَّ هؤلاء قوم عجم»، ولا ندري هَلْ يُريدُ بذلك أنَّ ابن فضلان عربي اللسان أم عربي الجنس؟ أم أنَّ الملك يجهل أصله فدعاه هكذا ؟

نُرَجِّحُ أن الملك لا يعرف أصل ابن فضلان، وقصده أنه لا يعرف جماعته الآخرين ضمن الوفد ؛ لأنهم من أصول غير عربية (أعجمية)، لكنه يعرف ابن فضلان ؛ لأنَّهُ رسولُ الخليفة المقتدر بالله العباسيّ، وهو رجل مسلم يمثل الخليفة، فأراد محاسبة ابن فضلان بشأنِ المَالِ الذي أمر الخليفة بتسليمه للملك؛ ليبني له حِصنًا ضدَّ الخَزَرِ أَعدَائِهِ .

وبخصوص اسمِ ابنِ فَضلان الأول (أَحمد) وَجَدنا ما يُخَالِفُهُ بالنص في متن الرسالة[6]، إذ أَخبرنا ابنُ فضلان أنه أسلم على يديه رجلٌ اسمُه (طالوت)، فَسَمَّاهُ : عبد الله، فقال لهُ الرجلُ : « أُريدُ أَنْ تُسمِّيني بِاسْمِكَ محمدًا»، ويخبرنا ابن فضلان أنَّهُ سَمَّاهُ بهذا الاسم، وعلى الرغم مِن أنَّنَا لا نجد تناقضا واختلافا كبيرين في هذا الأمر، لكننا وجدنا اختلافًا بسيطًا في اسمِهِ، لعلَّهُ تَصحيفٌ من ناسخ الرَّسالة، فضلًا عن أنَّ اسمَ أَحمد هو من الاسماء العربية المحببة، بَل مِن أسماء الرسول محمد (ص)، واعتزازا باسم الرسول الكريم (ص) فضّل الرجل تسميته – بعد إسلامه – بِاسمِهِ تَيَمُّنَا واعتزازًا بِهِ .

ولا يستوقفنا الاسم وحده (أَحمد)، بل اسم فضلان أيضًا، فالوزنُ عربيٌّ معروفٌ، لكننا لن نقع على اسم (فضلان) في الاسماء المشهورة لذلك العصر، مع أنَّ الرسالةَ تذكرُ أنَّهُ مولى لفاتح مصر محمد بن سليمان، وقبل كل هذا هو مولى أمير

(1)ورد هذا الاسم في رسالة ابن فضلان (صفحة العنوان) وكذلك ص65، وجاء فيها ما نصه : « هذا كتاب أَحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى محمد بن سليمان رسول المقتدر بالله الى ملك الصقالبة»، وعلى ص67 : «قال أَحمد بن فضلان»، يُنظر أيضًا: الحموي. معجم البلدان ج1/ص322-486، حسن. الرحالة المسلمون ص36.

(2) رسالة ابن فضلان ص65، نقلًا عن : مخطوطة مدينة مشهد الوحيدة، الورقة 196 ظ.

(3)تجارب الأمم ج1/ 51، نقلًا عن : الدهان (محقق). مقدمة رسالة ابن فضلان ص38، حسن. الرحالة المسلمون ص26.

(4) معجم البلدان 322،87/1، 486.

(5) الرسالة ص119، الدهان. مقدمة تحقيق الرسالة ص38.

(6) المصدر نفسه ص135. الدهان. المرجع نفسه ص-37 38.

المؤمنين، أي الخليفة العباسي المقتدر باللهِ ورسوله الى ملك الصقالبة، وهذا ما يجعلنا نعود الى ترجيح الرأي حول كون ابن فضلان مولى من العجم الموالي لذلك العصر[7] .

وبخصوص ولادته فإنَّنَا لا نعلم أين وُلِدَ ابن فضلان من بلاد العجم أو العرب، كما لا نعلم تاريخ ولادته ومتى دخل الإسلام، وكيف نَشَأَ وماذا شغل مِن مناصب دينية قبل البعثة إلى بلاد البلغار، وما هيَ صِلتُهُ بالوزير حامد بن العباس وما هي ثقافته الأدبية والدينية، وماذا خلّف مِنْ كُتُبٍ غير هذه الرسالة، كل هذه الأمور مجهولة تمامًا، لكن الرَّجل كانَ ذا ثقافة دينية وأدب رفيع واسلوب جميل، وورع وخُلُق وحُب لنشر الإسلام وصدق الحديث وعفة في المال، وهو لا يخلو من سذاجة، لعلها ترجع إمَّا الى سِنِّهِ المتقدمة أو إلى حالته الخاصة [8] .

ذكر كراتشكوفسكي[9] أن ابن فضلان يحتل المكانة الأولى بين الرحالة الذين زاروا شرق أوروبا والمناطق القريبة من روسيا، سواء من الناحية الزمنية أو الأهمية الذاتية، وذلك بسبب رسالته المشهورة التي تَجَدَدَ الاهتمام بها في الأعوام الأخيرة بنفس الدرجة التي تمتعت بها أول مرة منذ مئة وعشرين عامًا، وعلى الرغم من عدم وجود أَيَّة معلومات عن ابن فضلان، إلا أنه يحاول دائمًا في الرسالة أن ينسبَ إلى نفسه الدور الرئيس، ولم يقم حتَّى الآن أدنى رَيب حول صحة الرسالة اليه، وإذا كان البعض قد أبدى ارتيابه من وقت لآخر بشأنها، فإنَّ ذلك يمسُّ بعض التفاصيل ولا يُثبَت على محك النقد الدقيق.

وبخصوص رحلة ابن فضلان الى بلاد البلغار والصقالبة، فإننا لا نعرف طريق عودته إلى بغداد، كما أننا نجهل تاريخ وفاته، ولسنا نعرف عنهُ سوى أنه من رجال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، ولعل الزمن يكشف لنا معلومات جديدة عن ابن فضلان بالعثور على مخطوطة جديدة عن رحلته، فيها معلومات إضافية توضّيحُ لنا ما غمضَ من تفاصيل حياته، أو عن طريق اكتشاف وتحقيق ونشر مخطوطات أُخرى تجلو لنا هذا الغموض.

المبحث الثاني
الاهتمام بنشر رحلة ابن فضلان

أ - جهود المستشرقين في نَشر رحلة ابن فضلان:

اهتمَّ المستشرقون بتاريخ الروس والبلغار اهتمامًا خاصًّا ومُتميِّزًا، فمنذ سنة 1800م بدأوا بنشر ما ذكره العرب والمسلمون عن الروس، من خلال مؤلفات المسعودي وابن فضلان (نقلًا عمَّا ذكره ياقوت الحمويّ حصرًا) ؛ لأنَّ نسخة الرحلة المخطوطة في مدينة مشهد كانت مجهولة، ونقلوا ما ذكره الإدريسيّ كذلك عن الروس.

في سنة 1819م جمع المستشرق الألماني فرين freenمخطوطات ياقوت الحموي (عن كتابه : معجم البلدان) ؛ ليستخرج منها ما نقله ياقوت عن ابن فضلان، ونشرها تِباعًا منذ سنة 1822م، ونشرَ الفصل الخاص عن البلغار سنة 1832م.

وفي سنة 1841م جمع المستشرق راسموسن rasmussenمقاطع من فصول ياقوت، المنقولة عن ابن فضلان، وترجمها إلى الروسية، ونقلها نيكلسون إلى الانجليزية بعد أربع سنواتٍ.

وفي سنة 1863م نشر المستشرق الألماني وستنفلد دراسة بالألمانية عن الرحلات عند ياقوت، وفيها رحلة ابن فضلان، وكانَ يجمع مخطوطات ياقوت ؛ بِهدَفِ نَشرِ كتابه : (معجم البلدان).

وفي سنة 1899م نشر فستنبرغ festberg دراسة كذلك عن ابن فضلان، وفي سنة 1902م نشرَ المستشرق فون روزن rosen مقالًا باللغة الروسية عن ابن فضلان، وفي سنة 1911م كتب المستشرقُ التشيكي دفورجاك دراسةً عن ابن

(7)الدهان. مقدمة الرسالة ص38.
(8) المرجع نفسه ص39-38.
(9) تاريخ الأدب الجغرافي 187-186/1، العبادي. العلاقات ص118.

فضلان نشرهـا في مدينة براغ، وبعد سـنتين نشرَ بارتولـد parthold دراسـةً باللغة الروسـية عن موضوع : الرحلات إلى روسية عند العرب.

نسـتنتج ممَّـا سَـبقَ ذكـرهُ أنَّ رحلـة ابـن فضـلان (المنقولة عـبر ياقوت الحمـوي) كانت في صُلبِ اهتمامات هؤلاء المسـتشرقين، قبل اكتشاف مخطوطـة رحلة ابـن فضلان في مدينة مشـهد في إيران.

وفي سـنة 1924م نَشَرَ ماركوتارت دراسةً عن الرحَّالـةِ في مدينة ليبسـتك (لايبـزك) الألمانية، وفي السنة نفسـها تسلَّمَ المعهد الآسيوي للاستشراق في مدينة بطرسـبورغ ورقتين مصوَّرتين من النسخة الخطيَّة التي اكتشـفت في مشـهد، ووصلـتْ بقيةُ الأوراق إلى المعهـد مصوَّرةً بعدَ عشر سـنواتٍ، وقد نُـشرَ مقـالٌ باللغة الروسـية للتعريف بالنسـخة الخطيـة المكتشـفة في خزانة المخطوطـات بمدينة مشهد.

وفي سنة 1926م صدرَ فهرسُ خزانة مخطوطات مدينة مشهد، وفيه وصفٌ لهذه النسخة، تحت رقم 2 (أخبار البلـدان) / عربي، وقد كُتِبَتِ المخطوطةُ بخـط النَّسْـخِ، في كل صفحـة 19 سـطرًا، وعدد أوراقها 212 ورقة، آخرها مبتور مخروم[10].

ب- جهود العرب والمسـلمين في نـشر رحلة ابن فضلان:

يُعدُّ الباحث التركي وليد زكي طوغان أوَّل مَنْ حقَّقَ مخطوطة مشـهد من الرحلة، وقابلها مع ما ورد عنها عن ياقـوت الحمويّ، ونشرها بالحروف العربية والترجمة الألمانية سنة 1939م، وفي السنة نفسها ترجمها المستشرق الكبير كراتشكوفسكي، وكتب لهـا مقدمة إضافية، وفي آخر دراسـته نشرَ صورةً فوتوغرافية للرسـالة كاملـةً عن مخطوطة مشـهد، بحجم كبير، وعلى أسـاس هـذه الصورة اعتمـد التحقيـق الذي قـامَ به د. سـامي الدهان، وبالاستعانة بطبعة طوغان السابقة [11].

أوضـح د. سـامي الدهـان [12] قصة علاقته مع رسـالة ابـن فضلان – كمـا وردت تسـميتها في الكتـاب الـذي حققهُ – منذ سـنة 1955م، بعد لقائـه مع العلامـة محمد كرد عـليّ رئيس المجمع العلمـي العربي في دمشـق، في زيـارةٍ خاصَّةٍ له في بيتـه بدمشـق، وكيف أنَّ الرئيـس محمد كرد عليّ حدَّثهُ عن أهميَة الرسـالة وحاجـة المثقفين العرب إلى قراءتهـا وفهمها، واسـتحضار العِبر والدروس منها، والإشـادة بهمم الأجداد وسعيهم وثقافتهم، فهـي تصـفُ بـلاد الـروس والبلغار والأتـراك في القـرن الرابع الهجري / العـاشر الميلادي . وهكذا أبان د. سامي الدهان عن فرحه بالثقة التي أولاها الرئيـس محمد كرد علي، وحُسـن ظنه به، للعناية بهذه الرسالة وتحقيقها والتعليق عليها وإخراجها كاملةً إلى النور.

تكللتْ جهود د. سـامي الدهان بالنجاح وبلوغ المنَى، بإكمال تحقيق رسالة ابن فضلان (في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة)، وصدرت الطبعة الأولى منها في سـنة 1959م، عن مجمع اللغة العربية في دمشـق، مع تقديم واسـع وشروحاتٍ ضافيةٍ.

وصـدرت الطبعـة الثانيـة عـن مديريـة إحياء الـتراث العربي في وزارة الثقافة والإرشـاد القومي السـورية سـنة 1977م، ثم صـدرت طبعة ثالثة سـنة 1987م عن مكتبة الثقافة العالمية في بيروت، وعليها اعتمدت دارُ السـويدي في أبو ظبي في طبع رحلة ابن فضلان من جديد [13].

وذكر الأسـتاذ شاكر لعيبي [14] صدور كتاب تحت عنوان : رسـالة ابن فضلان مبعوث الخليفة

(10) الدهـان، مقدمة رسـالة ابن فضـلان ص 49-44، شاكر لعيبي، مقدمة رحلة ابن فضلان ص 12، 14.

(11) الدهان، مقدمة رسـالة ابن فضلان ص 50، شـاكر لعيبي، مقدمة رحلة ابن فضلان ص 12.

(12) الدهان، مقدمة رسالة ابن فضلان ص 10-7، -51 52.

(13) شاكر لعيبي، مقدمة رحلة ابن فضلان ص 12.

(14) المرجـع نفسـه ص 17، يُنظـر للتفصيـل : المرجع نفسه ص 29-17.

المقتدر إلى بلاد الصقالبة، عن رحلته إلى بلاد الترك والخزر والصقالبة والروس واسكندنافيا في القرن العاشر الميلادي [الرابع الهجري]، جمع وترجمة وتقديم الدكتور حيدر محمد غيبة، الشركة العالمية للكتاب، دمشق، 1991م.

والجدير بالذكر أنني اقتنيتُ نسخةً من رسالة ابن فضلان بتحقيق د. سامي الدهان، مصوَّرة عن أصل الطبعة الأولى بدمشق (1379هـ/1959م) عن دار صادر، بيروت، وقد جاء فيها أن الطبع تمَّ بإذن المجمع العلمي بدمشق رقم 505 / ص، بتاريخ 8/12/1991م، وورد ذِكر طبعات الرسالة، وهي الأولى المشار إليها أعلاه (1959م)، والثانية : دمشق، 1409هـ/1988م، والثالثة : بيروت، 1431هـ/1993م، عن دار صادر، وهي الطبعة الثالثة كما وردت في الرسالة المطبوعة.

أما الطبعة الأخيرة فقد صدرت بعنوان : رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة 921م[903هـ]، حَرَّرَهَا وقَدَّم لها : شاكر لعيبي، عن : دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي / الإمارات العربية المتحدة، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003م، في 151 صفحة.

ت – توثيق رحلة ابن فضلان لدى الجغرافيين العرب والمسلمين قبل نشرِهَا :

أشرنا إلى أن المستشرقين اهتموا بنشر نصوص من رحلة ابن فضلان، اعتمادًا على النقولات (النصوص) التي وَرَدَتْ عند ياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان)، وهذا يعني أن ياقوتًا هو الذي قادهم إلى ابن فضلان ورحلته، وكان ذلك تمهيدًا للوصول إلى نسخة من مخطوطة رحلة ابن فضلان، قبل التوصُّل إلى اكتشاف مخطوطة مشهد التي حقَّقها د. سامي الدهان بدمشق.

وأوضح د. سامي الدهان [15] أنَّ كُلًّا من الاصطخري وابن رسته والمسعودي وابن حوقل والمقدسي قرأوا رسالة ابن فضلان ونقلوا عنها، لكنه لم يثبت أنهم نقلوا عنه مباشرة، وبالرجوع إلى هؤلاء الجغرافيين يُرجَّحُ أنَّ ما ذكروهُ عن الروس والخزر والبلغار كان نقلا عن ابن فضلان، لكن نقلهم عنه لا يبدو كثير التطابق مع رسالة ابن فضلان إلَّا عَرَضًا وبنقاط معلوماتيَّة مشاعة يُمكنُ أنْ تتهيَّأَ لأيِّ جغرافيٍّ جاد .

وذكر د. الدهان [16] أنَّ ياقوت الحمويّ الذي عاشَ في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، كان أوَّلَ مَن أشارَ إلى ابن فضلان، واختار فصولًا من رسالته مُدرجًا إياها في معجمه: (معجم البلدان)، مُصرِّحًا بأَوضح عبارة أنه ينقل عنه (عن ابن فضلان)، خاصة تحت المواد الجغرافية الآتية :

1- إتل . قال ياقوت [17] ما نصه : «قرأت في كتاب أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حمّاد، رسول المقتدر إلى بلاد الصقالبة، وهم أهل بلغار: بلغني أن فيها رجلًا عظيمَ الخلق جدًّا، فلما سرتُ إلى الملك سألته عنه، فقال: نعم قد كان في بلادنا ومات».

2- باشغرد . ذكر ياقوت [18] : « وكان المقتدر بالله قد أرسل أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حمّاد مولى أمير المؤمنين ثم مولى محمد بن سليمان إلى ملك الصقالبة، وكان قد أسلم وأهل بلاده».

3- البلغار . مدينة الصقالبة ضاربة في الشمال، شديدة البرد، لا يكاد الثلج يقلع عن أرضها صيفًا ولا شتاء، وقلَّ مما يرى أهلها أرضًا ناشفة، وبناؤهم بالخشب وحده، وكان ملك البلغار وأهلها قد أسلموا في أيام المقتدر بالله، وأرسلوا إلى بغداد

(15) الدهان، مقدمة رسالة ابن فضلان ص 34، 40، 54-56، شاكر لعيبي، مقدمة رحلة ابن فضلان ص 13.

(16) مقدمة رسالة ابن فضلان ص 42.

(17) الحموي، معجم البلدان 1/87-88، وقارن : شاكر لعيبي، رحلة ابن فضلان ص 94-95 (هامش).

(18) معجم البلدان 1/322-323، وقارن : شاكر لعيبي، رحلة ابن فضلان ص 71 (هامش).

رسـولًا يُعِرَّفُونَ المقتدر ذلك يسـألونه إرسـال مَن يعلِّمهـم الصلوات والشرائع، وذكـر ياقوت [19] أنه لم يقف على السـبب في إسلامهم، ثم قال : «وقرأت رسالة عملها أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حمّاد مولى محمد بن سـليمان رسـول المقتدر باللـه إلى ملـك الصقالبة ذكر فيها ما شـاهده منذ انفصـل من بغـداد إلى أن عاد إليها، قـال فيها: لما وصل كتاب ألمس بن شلكي بلطوار ملك الصقالبة إلى أمير المؤمنين المقتدر بالله «.

4- خـزر، وهي بـلاد الترك خلف بـاب الأبواب المعروف بـــ: الدربند قريب من سـد ذي القرنين، وقال أحمد بن فضلان رسول المقتدر إلى الصقالبة في رسالة له ذكرَ فيها ما شاهده بتلك البلاد[20] .

5- خوارزم . قال ياقوت [21] : «وقرأت في الرسالة التي كتبها أحمد بن فضلان بن العباس بن راشـد بن حمّاد مولى محمد بن سـليمان رسـول المقتدر باللـه إلى ملـك الصقالبة ذكر فيها ما شـاهده منذ خـرج من بغداد إلى أن عاد إليها فقال بعد وصوله إلى بخارى».

6- روس : أمـة مـن الأمـم، بلادهـم متاخمـة للصقالبة والترك، ولهم لغة برأسها ودين وشريعة لا يُشـاركهم فيهـا أحد، ونقل عـن المقدسي قوله : هم في جزيرة وبئـة تحيط بها بحيرة، وهي حصن لهم».

قـال ياقوت [22] : «وقرأت في رسـالة أحمد بن فضلان بـن العباس بن راشـد [بـن العباس] بن حمّـاد مولى محمد بن سـليمان رسـول المقتدر إلى ملك الصقالبة حكى فيها ما عاينه منذ انفصل عن بغـداد إلى أن عاد إليها فحكيت ما ذكره على وجهه اسـتعجابًا به، قـال: ورأيت الروسـيّة وقـد وافوا بتجاراتهم فنزلوا على نهر إتل».

ومـن الجغرافيـين القريبـين من عـصر ياقوت الحمـوي، الذي نقل نُصُوصًا من رسـالة أحمد بن فضلان، هـو : زكريا بن محمـد القزويني، المتوفّى سنة 682هـ/1283م في كتابه (آثار البلاد وأخبار العباد)، وفي أربعة مواضع هي:

1/ في وصفـه نهر جيحون، قـال [23]: «قال ابن فضلان في رسالته : رأيت جيحون وقد جمد سبعة عشر شبرًا، والله أعلم بصحته».

2/ في حديثـه عـن الإقليـم السـابع، ذكـر [24] باشـغرت ووصفـه بأنـه : جبل عظيم مـن الترك بين قسـطنطينية وبلغار . حكى أحمد بن فضلان رسـول المقتدر باللـه إلى ملك الصقالبة لما أسـلم، فقال عند ذكر باشـغرت : وقعنـا في بلاد قوم من الترك...».

3/ في حديثـه عن عـادات الصقالبة، قـال [25]: «حكى أحمد بن فضلان لما أرسـله المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة، وقد أسـلم، حمل إليه الخلع. وذكر من الصقالبة عـادات عجيبة منها مـا قال: دخلنا عليه وهو جالس على سرير مغشى بالديباج».

4/ في حديثه عن بلاد الروس، ذكر القزويني[26] أنهـم أمة عظيمة من الـترك، بلادهم متاخمة لبلاد الصقالبة، قال أحمد بن فضلان في رسالته : «رأيت الروسية وقد وافوا بتجاراتهم على نهر اتل».

---

(19)معجم البلدان 487-485/1، وقارن : شاكر لعيبي، رحلة ابن فضلان ص 80-78 (هامش).

(20) الحمـوي. معجـم البلـدان 269-267/2، وقارن : شاكر لعيبي، رحلة ابن فضلان ص 114-111 (هامش).

(21)معجم البلدان 398-397/1، وقارن : شاكر لعيبي، رحلة ابن فضلان ص 54-53 (هامش).

(22)معجـم البلـدان 3/79، والتفاصيل : المصدر نفسـه 83-3/79، وقـارن : شـاكر لعيبـي، مقدمـة رحلـة ابن فضلان، هوامش ص 58-54، 122-118.

(23) آثـار البلاد وأخبـار العبـاد ص 526، يُنظر أيضًا: مصطاف. زكريا القزويني ص 128-127، شاكر لعيبي، مقدمة رحلة ابن فضلان، ص 15.

(24) آثـار البلاد وأخبـار العبـاد ص 610-609، يُنظر أيضًا: مصطاف. زكريا القزويني ص 128، شاكر لعيبي، مقدمة رحلة ابن فضلان، ص 15، 71 (الهامش).

(25) آثـار البلاد وأخبـار العبـاد ص 526، يُنظر أيضًا: مصطاف. زكريا القزويني ص 128، شاكر لعيبي، مقدمة رحلة ابن فضلان، ص 16-15.

(26) آثـار البـلاد وأخبـار العبـاد ص 586. وقـارن : الحموي، معجم البلدان 3/79.

ومن خـلال المقارنة بـين وفاة ياقـوت الحموي سـنة 626هـ/1228م، ووفاة زكريـا القزويني سـنة 782هـ/1283م، أي بفارق مقداره (57) سـنة، نرجح أن نسخة من رسـالة ابن فضلان قد وقعـت بين يدي زكريا القزويني ؛ بدليل إشـاراته الصريحـة التي اقتبس منها عـدة نصوص، فضلًا عن أنَّ معاصرة القزويني لمؤلف آخر، هو : ياقوت الحموي، يشتغل مثله على المادة والمعلومات المتوفرة نفسـها في عصريهمـا لا تنفي تمامًا وقوع نسـخة من رسـالة ابن فضلان بين يدي زكريا القزويني، وليـس اقتباسـه نصوصًا منها مـن كتاب (معجم البلدان)، وبذلك اسـتعمل كلُّ واحد منهما مصدرًا واضحًا باسمِه وعنوانه واسم مؤلفه (ابن فضلان) واعترافهما صراحة بالنقل من رسالته؛ بدليل قول ياقـوت [27] ما نصُّهُ : «وقصـة ابن فضلان وإنفاذ المقتدر له إلى بلغار مدوّنة معروفة مشهورة بأيدي الناس، رأيت منها عدَّةَ نُسَخٍ».

نكتفي بهـذا القدر من توثيق رحلة ابن فضلان في المصادر الجغرافيـة، بإيراد نموذجين صريحين وواضحين ذَكَرَا رسالة ابن فضلان واسمه الصريح، ولا نريـد الاسـتغراق والاسـهاب في ذكـر مؤلفات جغرافيـة متأخـرة عن هـذا الموضـوع ؛ لأن إطار البحـث ومضمونه لا يتحملان الإطالة والتوسـع في هذا الحَيِّزِ المحدودِ.

المبحث الثالث
رحلة ابن فضلان

جـاء في عنـوان الكتـاب الذي طُبعـت فيه رحلة ابن فضلان بتحقيق د. سـامي الدهان بالنص أنها : رسـالة ابن فضلان ، وتحتهـا : أَحمد بن فضلان بن العباس بن راشـد بن حمـاد، في وصف الرحلة إلى بـلاد الترك والخـزر والروس والصقالبة سـنة 309هـ /921م، وبعد مقدمة المحقق وقبل ايراد نص الرسـالة، يرد العنوان التـالي (ص65) : هذا كتـاب أَحمـد بن فضلان بن العباس بن راشـد بن حمـاد مولى محمد بن سـليمان رسـول المقتدر الى ملـك الصقالبـة، وتحتها جاء النـص : « يذكر فيه ما شـاهد في بلد الترك والخزر والروس والصقالبة والباشـغرد وغيرهم، من اختلاف مذاهبهم وأخبار ملوكهم واحوالهم في كثير من أمورهم» .

يتضح لنا أنَّ رحلةَ ابن فضلان دُوِّنَتْ في رسـالةٍ اقترنَتْ بِاسمِهِ، ثُمَّ سُمِّيَتْ : كتاب أَحمد بن فضلان، أي مذكراتـه ومشـاهداته في بـلاد الـترك، الخزر، الـروس، الصقالبـة، الباشـغرد، وغيرهـم، وهـي مذكـرات وملاحظـات شَـاهِد عَيـان كتبها خلال رحلتـه وربما أكملهـا ونقَّحها بعـد عودته، وهذا الاختـلاف في التسـمية لا يغـيِّرُ من الرحلة شـيئًا، فالرسـالة والكتاب يؤديان هدفًـا واحدًا هو توثيقُ رحلة ابن فضلان بعينها .

وقـد تناقـل المؤرخـون والجغرافيـون بعد ابن فضـلان التسـميات المختلفة هذه حـول رحلة ابن فضـلان، فالحموي نقل فقرات مطولة منها ضمن مـواد جغرافية عديدة، مثل : أتل، باشـغرد،بلغار، قـال في مـادة أتل ما نصـه [28]: « قـرأت في كتاب أَحمـد بن فضلان بن العباس بن راشـد بن حماد، رسول المقتدر الى بلاد الصقالبة ...» . وقال في مادة بلغار ما نصه [29] : « وقرأت رسالة عملها أَحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى محمد بن سليمان رسـول المقتدر بالله الى ملك الصقالبة ذكر فيها ما شـاهده منـذ انفصل من بغداد الى أن عاد إليها ...» .

نَسـتَنتِجُ ممَّا جـاء في عنوان رحلـة ابن فضلان ومـا ذكره ياقوت الحموي عـدم ذكر بلاد البلغار، بـل ورد ذكر الصقالبة فَقط بـدلًا عنهم، مما يدلل ويؤكد مـا ذكرناه مـن أن البلغار هـم الصقالبة، كمـا ذكر ابن فضـلان صاحب الرسـالة، وقد ذَكَرَ

(27)الحموي، معجم البلدان 1/88.

(28)معجـم البلدان 1/87. ويُنظر : شـاكر لعيبي. رحلة ابن فضلان، ص 95-94 (الهامش).

(29) المصـدر نفسـه ص 486.. ويُنظر : شـاكر لعيبي. رحلة ابن فضلان، ص 80-78 (الهامش).

(30) المصدر نفسه ص 88.

الحمويُّ [30] أنَّ قصةَ ابن فضلان وإرسال المقتدر لهُ إلى بلغار مدونةٌ معروفةٌ مشهورةٌ بأيدي الناس، وأنه رأى منها عدة نسخ، وذلك في عصره أي خلال القرنين السادس والسابع الهجريين / الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين .

وهكذا يتضح لنا أنَّ الاثر الذي تركه ابن فضلان كان معروفًا منتشرًا، بعد إتمام رحلته تلك التي جرت في مطلع القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي.

المحور الأول

أ - أسبابُ الرحلةِ:

أما اسباب رحلة ابن فضلان فكانت استجابة لطلب ملك الصقالبة (البلغار) المش بن يلطوار[31] إلى أمير المؤمنين الخليفة المقتدر بالله العباسي، الذي أرسل كتابًا إلى الخليفة من قبل رسوله عبد الله بن باشتو الخزري، وقد طلب الملك من الخليفة العباسيّ في كتابه هذا، الآتي :

1- إرسال جماعة من المسلمين من علماء الدين ليُفقِهوا الملك وقومه في الدين ويعلموهم احكام الشريعة الإسلامية.

2- بناء حصن من مال الخليفة يتحصن فيه من الملوك المخالفين له.

3- بناء مسجد للملك، وينَصِبُ فيه منبرا ليقيم عليه الدعوة للخليفة في بلده وجميع مملكته ارسال بعض العقاقير والأدوية ؛ ليستعينوا بها في معالجة مرضاهم [32] .

يتضح لنا من خلال هذه المطالب أن ملك البلغار أراد توثيق علاقاته مع الدولة العباسية في عهد الخليفة المقتدر بالله، ونستدل من هذا على أنَّ الملكَ كانَ مُسلمًا أَرادَ الإفادةَ من إمكانيات الدولة العباسية الهائلة وقدراتها وحضارتها، ليكسب قوة معنوية وذلك بانتسابه الى خليفة المسلمين، لمواجهة أَعدائِه وأعداء الإسلام المجاورين له.

وقبل دراستنا للرحلة واحداثها يجدر بنا عرض صورة سريعة عن الظروف التي كانت تَمُرُّ بها الخلافةُ العباسية، فقد كان الوضع السياسي في بغداد في عصر الخليفة المقتدر بالله متدهورًا، وازدادت قوة الوزراء وتأزم الوضع المالي، إلَّا أَنَّ بغداد ما زالت تمثِّلُ مركزَ الرُّقيّ الفكريّ مقابل الانحطاط الحضاري الذي ساد البلدان التي زارها ابن فضلان، يتضح لنا ذلك من وَصفِهِ التَّباين الواضح بينَ مُجتمعِهِ وقيمه وبين مجتمعات تلك البلدان، وبناء على ذلك اخذ البغداديون زمام المبادرة في تعليم هؤلاء الاقوام من الترك والخزر والبلغار وغيرهم من الشعوب تلك الآداب والاصول، وكان من أَشهرهم أَحمد بن فضلان رسول الخليفة العباسي المقتدر بالله الى ملك الصقالبة، و ما دَوَّنَهُ مِن معلومات في رحلته تلقي ضوءًا ساطعًا على دور مدينة بغداد وابنائها في نشر الحضارة بين الأُمم القريبة والبعيدة، ومنهم الصَّقالبة [33] .

تَوَزَّعَت المسؤوليات على أَعضَاء الوفد الذي

(31)وَرَدَتْ تَسميتُهُ هذه عند ابن فضلان. الرسالة ص67، وعلى ص102 ذَكَرَ ابنُ فضلان نقلًا عن ملك الترك أنه قال لهم : « إن هؤلاء رسل ملك العرب إلى صهري المش بن شلكي «، وهذا يعني أنَّ المش بن شلكي ملك الصقالبة هو صهر ملك الترك. وقبل رحلة ابن فضلان ذكر لنا ابن رسته (الأعلاق النفيسة ص141) أن ملك البلغار يسمى : المش وهو ينتحل الإسلام، ولا ندري لعله الملك نفسه الذي زَارَهُ ابن فضلان بعد ذلك، وسماه الحموي : المس بن شلكي بلطوار. معجم البلدان 1/486، ولعلهُ تصحيفٌ لاسم : المش، كما ورد اسمه : المشرح بن سلكي يلطوار. د. جمال رشيد أَحمد. مع رحلة ابن فضلان ص345. وذكر بارتولد نقلًا عن ابن فضلان أنَّ اسمَ ملك البلغار (المس) كان موجودًا في الرواية التي نقل عنها ابن رسته ومن جاء بعده، وأضاف حول مسألة الاسم (المس) أو (المش) بأنه لا يعرف هل كان الاسم قد ظهر بهذه الصيغة في الرسالة أو أَنَّهُ يرجع إلى النُّسَّاخِ المتأخرين ؟ إذ إنَّ الرسالةَ كانت منتشرةً بِنُسَخٍ عديدةٍ في عهد ياقوت. مادة (بلغار). دائرة المعارف الإسلامية 591-589/7.

(32) ابن فضلان. الرسالة ص69-67، الديوةجي. الصلات ص5-4.

(33)د. جمال رشيد أَحمد. مع رحلة ابن فضلان ص342.

بعثــه الخليفــة المقتــدر باللــه العبــاسي الى ملــك البلغــار (الــروس)، إِذْ أَخبرنا ابن فضــلان [34] أن الســفير المبعوث الى الملــك هو نذيــر الحرمي [35]، وذكرَ عَن نفسِــهِ أَنَّهُ انتُدِبَ لقــراءة كتاب الخليفة عليه، وتســليم الهدايا اليــه، والإشراف على الفقهاء والمعلمين والصرف عليهم، وتحصيل المال المرســل اليه، الــذي طلبه لبناء المســجد والحصن في بلاده، وســيتم تحصيــل المال مــن الضيعــة المعروفة بـــ: ارثخشــمثين [36] مــن أرض خــوارزم، وهــي مــن ضياع وزير المقتدر أبي الحســن عــلي بن الفرات، وكان يتولى إدارتهــا بعد عزله عن الوزارة، الفضلُ بنُ مُوسَى النصرانــي وكيل ابن الفرات، فطلب اليه الخليفة بموجب كتابه تسليمها الى أَحمد بن موسى الخوارزمي، وكان الرســول من جهة الخليفة هو : سوســن الرسي مولى نذير الحرمــي، وضم الوفد : تكين التركي وبارس الصقلابي .

يَتَّضِــحُ لنا أَنَّ الوَفدَ مُكوَّنٌ مِن أَربعَةِ أَشــخاص، هــم : أَحمد بن فضلان رئيس الوفد، إِذْ ينســبُ إلى نفسِــهِ الــدورَ الرئيــسَ، وكان مُكلَّفًا بعــدة مهام أبرزها : قراءة كتاب الخليفة العباسي المقتدر بالله أَمام ملك البلغار، وهذا يوضح لنا مهمته السياسية فضلا عن تســليم هدايــا الخليفة اليــه، والاشراف عــلى الفقهاء والمعلمــين الذين اوفــدوا لتعليم ملك البلغار وشــعبه أُصُول الدين الإِسلامي والشريعة، وهذا يوضح لنا مهمته الدينية لِلإشراف على هؤلاء الفقهــاء والمعلمين، كما عُهدت إليه مهمة اســتلام المــال مــن ضيعــة ارثخشــمثين في بلاد خــوارزم وتسليمه الى ملك البلغار ليبني به المسجد والحصن في بلاده .

أما بقية أعضاء الوفد، فهم: سوسن الرسي وتكين التركــي وبارس الصقلابي، وقد أرســل الوفد بناءً على طلب رســول ملك البلغار عبد الله بن باشــتو الخزري، وهو أمرٌ يثيرُ التَّسَــاؤل والاســتغراب أن يرســل ملك البلغــار رجل خــزري، إذ المعروف أَنَّ الملــك كان على علاقة ســيئة جدًّا مــع دولة الخزر التي كانت تحارب المســلمين بشدة، ولعل الاختيار وقع عليه لســببين، أَوَّلَهُمَا: معرفته باللغة العربية وثقته، وثانيهما لما يتمتع به من حسُن إسلامه[37]، ولعــل ابن باشــتو كان دليل الوفد عِندَ سَــفَرِهِ من بغــداد مُتَوَجِّهًا الى بــلاد البلغار، ويخيــل الينا أَنَّ اثنين مــن أَعضاء الوفــد البغدادي يعرفــان اللغة الروســية، الأول سوســن الــرسيّ الــذي يبــدو من انتمائِــهِ إلى بــلاد الــروس، وقيــل إِنَّهُ منســوبٌ إلى نهر الــرس، جلب كرقيــق ثم تعلم اللغــة العربية وحسُن إســلامه، والثاني بارس الصقلابي واسمه ونســبته دليلان عــلى أَصلِــهِ، فهو مــن الصقالبة، وسُــمِّي: بارس الحاجب ووصُف بِأَنَّهُ قائدٌ وثائرٌ، وهــو غلامُ إســماعيل بن أَحمد الســاماني صاحب خراســان، وكان مــن الصقالبــة (البلغــار) الذين ســكنوا بين المســلمين وتعلم اللغة العربية واعتنق الدين الإِســلامي، أما تكين التركي فــكان حدَّادًا في خــوارزم، ولــه اتصال مع ملك البلغــار، وكان على معرفة بالطريق الذي سيســلكه الوفــد، أما الرابع فهــو أَحمــد بن فضلان الــذي كان يجهــل اللغات الاجنبيــة، كما يتضح لنا مِنْ رِسَــالتِهِ، ويســتعين

(34) الرسالة ص68، 78-77، الدهان. مقدمة رسالة ابن فضلان ص24، شــاكر لعيبي. مقدمــة رحلة ابن فضلان ص 32.

(35) اختلــف في لقبــه فهو عنــد ابن فضــلان : الحرمي. الرســالة ص68 فما بعد، وعند الحموي : الحزمي. معجم البلدان 1/486، وســماه الدهان : الخرمي. مقدمة رسالة ابــن فضــلان ص23 فما بعد، ينظــر أيضًــا : الديوةجي. الصلات ص5.

ونرجِّــحُ لقبه «الحرمي»، كما ورد في رســالة ابن فضلان، ومــا جاء من اختــلاف انما هو تصحيف النُســاخ في الأعم الأرجح.

(36) ارثخشــمثين : مدينــة كبــيرة ذات أســواق عامــرة ونعمــة وافرة، مــن أعمال خــوارزم مــن أعاليهــا، بينها وبين الجرجانية مدينة خــوارزم ثلاثة أيام، زارها ياقوت الحموي في شــوال ســنة 616هـــ، قبل وصــول التتر إلى خوارزم بأكثر من عام. الحموي. معجم البلدان 1/141

(37)الدهان. مقدمة رسالة ابن فضلان ص23، العبادي. العلاقات ص122-121.

بالترجمـان للتفاهم مع الأقوام التـي التقى بها في رحلته، لكنه كان على المام باللغة العربية والشريعة الإسلامية، وأسندت إليه رئاسة الوفد وقيادته، فهو في كل الظـروف يأمـر وينهـي ويقـرر الرحلة أو البقاء [38]، إذ قالَ [39] : « فنُدبتُ أنا لقراءة الكتاب عليه وتسـليم ما أُهدي إليه، والاشراف على الفقهاء والمعلمـين « . وكان مـع الوفد أشـخاصٌ ثانويون ذكرهـم ابنُ فضلان قائِلًا [40] : « وتأخر عنَّا الفقيه والمعلِّـمُ والغلمان الذيـن خرجوا معنـا من مدينة السَّلام»، ولعلَّهُم كانوا في مرتبة الملحقين المعاونين كما نسميهم بلغة الدبلوماسية اليوم.

ب- مسارُ رحلة ابن فضلان

غادر أعضـاءُ الوفد مدينة السـلام (بغداد) يوم الخميـس 11 صفر سـنة 309هـ / 21حزيران 921م، فأقامـوا يومًـا واحـدًا في النهـروان، وبعد وصولهـم إلى الدسـكرة أقامـوا بهـا ثلاثـة ايام، ولَّـا وصلوا حلـوان اقامـوا بها يومـين ومنها الى قرميسـين، وبعد إقامة فيها مـدة يومين غادروها حتى وصلـوا همذان، فأقاموا فيهـا ثلاثة ايام، ثم توجهـوا الى سـاوة، فأَقاموا فيها يومـين ومنها إلى الرّيّ حيث أقاموا بها أَحَدَ عَشَرَ يومًا، وهكذا واصلَ ابـن فضلان وصـف طريق الذهاب مـن بغداد الى بلاد البلغار سـالكين طريق خراسان – خوارزم – البلغار.

بَعـدَ وُصُولِ ابن فضلان والوفد المرافق له مدينة بَخـارى، التقـى بوزير السـامانيين أبـي عبد الله أحمد بن محمد بن نصر الجيهانيِّ الكاتبِ صاحب كتاب: المسالك والممالك [41]، وقد سعى لمقابلة الوفد مع الأمير نصر بن أَحمد الساماني، وفعلًا استقبلهم الأمـيرُ، وبدأهـم بالسـؤال عـن الخليفـة العباسي المقتـدر بالله، قُرِئَ بحضرته قراءة كتاب الخليفة الموجه اليه بتسـليم قرية ارثخشـمثين من الفضل بـن موسى النصراني وكيل ابن الفرات الى أَحمد بن مـوسى الخوارزمي، وقام الأمير بإرسـال كتابٍ الى صاحبه بخوارزم لتنفيذ أمر الخليفة بخصوصها، كما أَمَرَ نصر بن أَحمد صاحبه في خوارزم بحماية الوفد وتقديم كُلّ ما يحتاجه وتسهيل مهمة سفره الى بلاد البلغار،فأجابه بالسمع والطاعة [42].

ويبدو أَنَّ تسـليمَ ارثخشـمثين لم يتم، إِذ وَصَلَ الخَـبر إلى الفضـل بن موسى النَّصرانـي وكيل ابن الفـرات عليهـا، فاسـتخدم الحيلةَ ضِـدَّ أَحمد بن مـوسى الخوارزمـي الذي ما يـزال في بغداد ولحق بالوفدِ بَعدَ سَـفَرِهِ بِخَمسَـةِ أَيَّـامٍ، إِذْ كَتَبَ الفَضلُ إلى مَسـؤولي الطريـق من جند سرخـس الى بيكند بالقبض على أَحمد بن موسى الخوارزمي واعتقاله، وتـم ذلك فعلًا، إذ اعتُقِـلَ في مدينة مرو، وقد اتَّفَقَ (تَوَاطُؤ) الفضل مع مبعـوث ملك البلغار عبد الله بن باشتو وغيره حول موضوع أَحمد بن موسى [43]

وهكذا يتضح لنا عـدم تحقيق أحد مطالب ملك البلغار بإيصال الأَمْوَالِ اللَّازمة اليه من ريع لقرية ارثخشـمثين، لصرفها على بناء المسـجد والحصن الذي طلب ملك البلغار مسـاعدة الخليفة العباسي لبنائهمـا من ماله الخـاص، ويدلنا مـا جرى من نقـاش بين ابـن فضلان وملـك البلغـار على هذه الحقيقة [44].

اسـتمر ابـن فضـلان في وصـف معانـاة الوفد والمتاعـب الشـديدة التـي لقيهـا من بـرد قارس

(38) المرجع نفسـه ص24-23، ص69 هامش، العبادي 0 العلاقـات ص 123-122 الديوة جي 0 الصلات ص 6-5 0

(39) الرسالة ص69.

(40) المصدر نفسـه ص87. يُنظر أيضًا : الدهان. مقدمة الرسالة ص24، العبادي. العلاقات ص123.

(41)ينظـر عنـه : ابن النديـم. الفهرسـت ص153، ابن فضلان. الرسالة ص76 وهامشها.

(42)ينظـر عن الرحلـة : ابن فضلان. الرسـالة ص-73 110، (وعـن سـير خـط الرحلـة راجع ملحق رقـم 1)، ينظـر أيضًا: الحموي. معجم البلدان 486/1، الديوةجي. الصلات ص7-6.

(43) ابن فضلان. الرسالة ص78-77.

44.المصدر نفسه ص120-118.

وصعوبـات الطريـق، بسـبب بُعـد المفـازات بين خوارزم وبلاد البلغار، وما اعتراهم من الخوف من الخزر والترك في تلك الديار [45] .

ولَّما اقترب وصول الوفد من بلاد الصقالبة، التي قَصَد لزيارتها ومقابلة ملكها، وكانوا على مسـيرة يوم وليلة من عاصمـة البلغار، وصلَ الخبرُ بِقُربِ وُصُولِ الوفد القادم من بغـداد، فأمر ملك البلغار أَنْ يخـرجَ لاسـتقبالهم الملوكُ الأربعـةُ الذين كانوا تحـت إمرته ومعهم إِخوته وأولاده، فاسـتقبلوهم، وحملـوا معهـم الخبـز واللحم والجـاورس (حب معروف يـؤكل مثل الدهـن) وسـاروا معهم، ولما اقـترب الوفد على بعد فرسـخين [46] مـن عاصمة الملك، أي أكثر من (9) كيلومترات ونصف، تلقاهم بنفسـه، فنزلَ وخرَّ سـاجدًا شـكرًا لله – عزَّ وجلَّ – وفي كمِّـهِ دراهم نثرها عليهـم، ونصب لهم قبابًا نزلوا فيها، وكان وصولهم اليه يوم الاحد 12محرم سنة 310هـ[47]، الموافق 11 آيار سنة 922م [48]، فاسـتغرقت رحلةُ الوفد في ذهابـه من بغداد حتى وصوله مدينة بلغار عاصمة بلاد البلغار قرابة أَحَدَ عشَرَ شهرًا، وصف ابن فضلان خلالها ما لقي من مصاعب كثيرة وأَهـوال مذهلة وَصفًا جميلًا بارعًا يَضعه في الصف الأول من الرَّحالة الأُدباء[49] .

بعـد وصول الوفد البغـدادي الى عاصمة البلغار عـلى نَهر الفولجا (أتل) واسـتقباله مـن قبل الملك وحاشـيته، أقام أربعـة أيـام (الأحد-الأربعاء) في القباب التي ضُرِبَتْ لهم، جمع الملك خلال تلك الايام الملـوك والقادة وأهل بلده، ليسـمعوا قراءة الكتاب الذي أرسـله الخليفة العباسي المقتدر بالله إلى ملك البلغـار، كما أَخَذَ الوفدُ خلالها قسـطًا من الراحة من سفره الطويل، وفي يوم الخميس كان اجتماعهم فَنَـشَرَ الوفـد المِطردين اللذين كانـا معهم، وهما : الراية واللواء اللتين بعثهما الخليفة الى ملك البلغار مـع الوفد، وقام الوفد أَيضًا بإسراج الدابة بالسرج المُوَجَّـه الى الملك، ليركبها تَبَرُّكًا واعتِـزازًا بالخليفة العبـاسي، كما ألبسـوا الملك السـواد والعمامة، كل هذه الامور كانت مع الوفد، وبذلك قُلِدَ ملك البلغار رسـوم الخلفـاء العباسـيين وشـاراتهم، إذ لبس السواد وهو شعار العباسيين والعمامة التي بعثها الخليفة اليه تشـبُّهًا به وإكرامًا له قبل قراءة كتاب الخليفـة اليه، وبحفل مهيب حضره الملوك والقادة وأهل بلده .

واصـلَ ابن فضـلان حديثـه عن هذه المناسـبة الخالدة فيذكر أَنَّهُ أَخرَجَ كتابَ الخليفة اسـتعدادا لقراءتـه، وقـال للملـك : لا يجـوز ان يُقـرأ كتاب الخليفة ونحنُ جلوس، أي يجـب أَنْ يَقِفَ الجميعُ بمن فيهم الملك، وفِعلًا قام الملك هو ومن حضر معه مـن وجوه أهل مملكتـه إجلالًا واحترامًـا للخليفة العباسي، ووصَفَ ابن فضلان ملك البلغار بأنه كان

(45) المصدر نفسه ص110-73، الحموي. معجم البلدان 1/486، الديوةجي. الصلات ص7-6.

(46) الفرسـخ فارسي معرب فرسـنك، وهو وحدة قياس للأطوال (المسافات)، ويساوي (3) ميل، أي بحدود أربعة كيلومترات ونصف. هنتس. المكاييل والأوزان الإسـلامية ص95-94.

(47) ابـن فضـلان. الرسـالة ص113. وذكـر كراتشكوفسكي أَنَّ السفارةَ وَصَلَتْ إلى بلغار في 18 محرم 310هـ = 12مايو 922 م. تاريخ الأدب الجغرافي العربي ق187/1. وحدد د. الدهان وصول الوفد الى الفولجا عند ملـك الصقالبة يوم الأحد 12 محـرم 310هـ الموافق 11 أيار 922م. مقدمة رسالة ابن فضلان ص25، 37.

(48) ذكرَ د. زكي محمد حسن أَنَّ الوفد وَصَلَ بلادَ البلغار في 12 محرم سنة 310هـ / الموافق 12 مايو سنة 922م. الرحالة المسلمون ص27، وحدَّدَ كراتشكوفسكي التاريخ الميلادي نفسـه كمـا ذكرنا في الهامش السـابق. وأخطأ د. الدهـان فذكر أَنَّ الوفد عادَ إلى بغداد في 12 محرم 310هـ /الموافق 11مـارس 922م، وأَنَّهُ قَضَى قرابةَ عام كامل في رحلته. قدماء ومعاصرون ص52. ولم نجد تحديدًا لعودة الوفد الى بغداد إطلاقًا في أي مصدر من مصادر دراستنا.

(49)ينظر : ابن فضلان. الرسالة ص113-73، الحموي. معجـم البلـدان 1/486، الدهـان. قدمـاء ومعـاصرون ص52، مقدمـة تحقيق رسـالة ابن فضـلان ص25، 37، كراتشكوفسكي. تاريخ الأدب الجغرافي العربي ق187/1، الديوةجي. الصِلات ص7-6، الدهان. مقدمة رسـالة ابن فضلان ص 29-25.

رجلًا بدينًا وبطينًا جِدًّا .

بـدأ ابن فضـلان بقراءة صـدر كتـاب الخليفة الموجـه الى ملـك البلغار، فلما وَصَلَ منه : « سـلام عليك فإني أَحمدُ إليك الله الذي لا إله إلَّا هو»، طلب منـه ابن فضلان أن يرد السـلام على أمير المؤمنين، فَـرَدَّ ورَدَّ الجميعُ معه، وكان الترجمان يترجم لهم حرفًـا حرفًا، ولما أكمـل قراءة كتـاب الخليفة كبّر الجميع تكبيرة ارتجت لها الأرض !

وهكـذا وَصَفَ لنا ابنُ فضـلان وَصفًا رَائعًا ذلك المشهد التاريخي الخالد، عند قراءته كتاب الخليفة العباسي المقتدر بالله الى ملك البلغار، وأوضح لنا عظيـم هيبـة الخليفة في نَفـسِ المَلِكِ وأَهـلِ بَلده، فَضـلًا عن أنَّ ابـن فضلان بدأ مبـاشرة بنقل قيم وتقاليد المسـلمين في احترام الخلفاء وإجلالهم من خلال أمره الملك وحاشيته وجميع من كان حاضرًا بالوقـوف اثناء قـراءة كتاب الخليفـة، وكذلك أمر الجميـع برد السـلام على الخليفة العبـاسيّ، وبعد انتهـاء قراءة الكتـاب كَبّر الجميـع تكبيرة عظيمة مدوية، ثم قرأ ابـن فضلان كتاب الوزير حامد بن العبـاس، وكان الملـك واقفًا، ثم أمـره ابن فضلان بالجلـوس فجلس عند قـراءة كتاب نذير الحرمي، ولمـا أكمل ابـن فضلان قـراءة كتاب الأخـير، نثر اصحـاب الملـك الدراهم الكثـيرة عليه، ثـم اخرج ابن فضلان الهدايا المخصصـة للملك وزوجته من الطيـب والثياب واللؤلؤ، وكان من عاداتهم جلوس زوجـة الملـك الى جانبه فخلـع عليها ابـن فضلان بحضـور أهل بلـده، ولما خلع عليها نثرت النسـاء عليها الدراهم، وانتهى هـذا الاحتفال المهيب بهذه المراسيم [50] .

المحور الثاني

ج- تأثيرات رحلة ابن فضلان :

اسـتمر ابـن فضـلان يرسـم في رحلتـه صورة واضحة للبلغار (الـروس) وحضاراتهم وعاداتهم وتجارتهـم، لكنهم كانوا مازالوا دون ما وصل اليه المسلمون في مدنيَّنتهم، على الرغم من وجود عادات طريفـة عندهم، منها أن كل واحد يأكل من مائدته لا يشـاركه فيهـا أحد، ولا يتناول مـن مائدة غيره شيئًا، وكانت ملابسـهم التي يلبسونها على الرأس هي القِلانس يرفعونها عن الرأس ويضعونها تحت الإبـط للتحيـة وإظهار الاحترام، كمـا كانت علاقة الملك بشـعبه علاقة ابوية ديمقراطية، وعرضُ ابنُ فضـلان وصفـا لطول الليل شـتاءً وطـول النهار صيفًـا، وتعذَّرَ تحديد أوقات الصلاة . ووصفَ ابنُ فضلان حـب البلغار لمادة (السـمن) وكان ملكهم بدينا (سمينا)، كما كان عندهم تفاح اخضر شديد الحموضة تأكله الجواري فيسمنَّ [51] .

إنَّ الذي يهمُّنَا هو إبراز الآثار العربية الإسلامية التي تركهـا ابن فضلان والوفـد المرافق له في بلاد البلغـار اثنـاء رحلتهـم، فابنُ فضلان هـو الرَّجُلُ المكلَّفُ بِأَدَاءِ المَهام والمسـؤوليات الدينية، استجابة لرغبة ملك البلغار الذي طلب من الخليفة العباسي أَنْ يرسـلَ إليـه بعثة تضمُّ رجـالَ ديـن، مُهِمَّتُهُم تَبصيره بأمـور الدين الإسـلاميّ وأحكامه وكذلك توضيح هـذه الأُمُور لِشَـعبِهِ، واتَّضَحَ لنـا أَنَّ ابنَ فضـلان كان رَجلًا ملتزمًا متمسِّـكًا بِدينِهِ وتقاليد الإسلام منذ مقابلته الاولى لملك البلغار عند استقبالِهِ مـعَ الوفـدِ المُرَافِق لـه، إِذْ بَدأ يطبق تلـك التقاليد العربية الإسـلاميَّة مباشرة عندما أمر ملك البلغار بالوقوف إجلالًا واحترامًا للخليفة اثناء قراءة كتابه وكتـاب الوزير حامد بـن العباس، وطلب الرد على سلام الخليفة للملك، والتكبيرة المدوية التي كَبَّرَ بها مَـنْ كانَ حاضرًا ذلك الاحتفال بعـدَ اختتام قراءة الكُتُبِ المُوَجَّهَةِ إلى ملك البلغار .

اسـتمر ابن فضلان في وصف مراسـيم استقبال الوفـد والحفاوة البالغـة به من قبل ملـك البلغار وحاشـيته، فبعد اتمام قراءة الكتب وتقديم الخلع والهدايـا لـه ولزوجتـه، طلب مـن اعضـاء الوفد

(50)ينظر : ابن فضلان. الرسالة ص115-113.

(51) المصـدر نفسـه ص131-116، حسـن. الرحالـة المسلمون ص30-28، بارتولد. بلغار ص594.

الدخـول اليه، وكان جالسـا في قبتـه، وكان الملوك يجلسـون عن يمينه، فأمر أعضاءَ الوفد بالجلوس عن يسـاره، وكانَ أَولادُهُ جالسين بين يديه،، وكان الملكُ جالسًـا وحـده على سرير مغـشى بالديباج الرومـي، فدعَـا بِالمَائِـدَةِ وقُدمـت، وعليهـا اللحم المشـوي، وبعد انتهاء الوليمة دعا بشراب العسـل الذي يسـمونه : (السـجو) فَـشَربَ قَدَحًـا، ثُمَّ قامَ فَقَـال : « هذا سروري بمولاي أمير المؤمنين- أَطال اللهُ بَقَـاءهُ »، وقام الملوكُ الأربعـةُ وأولادهُ لقيامه، كمـا قام أَعضاءُ الوَفدِ، وكـرَّرَ ذلك ثلاثَ مرات، ثم غـادرَ الوفد المكان [52]، وبعـد ذلك بدأ ابنُ فضلان يضع الأسـس والقواعد الدينية في مكانِهَا المناسب، من خلال تَوجيهاته وتصحيحاته لكثير من الأُمورِ التي جَرَت بشكلٍ مخالفٍ لأُصول الإسلام وتعاليمه.

ذَكَرَ ابنُ فَضلان [53] أَنَّ الخطبةَ لملك البلغار كانت تبدأ على منبره قبل وصـول الوفد بالقول : « اللهم وأصلح الملك يلطوار ملـك البلغار»، وقد أوضح له ابن فضلان بأسـلوب الإقنـاع والنصيحة ما يؤدي الى تغيـير هذه الخطبـة، بأَنَّ الله تعـالى هو الملك، ولا يُسَـمَّى على المنبر بهذا الاسـم غيره، وضرب له مثلا ان الخليفة العباسي المقتدر بالله رَضي لنفسه أَنْ يقـالَ على منابـره في الشرق والغـرب : « اللهم أَصلـح عبدك وخليفتك جعفر الامـام المقتدر بالله امير المؤمنين»،وكذلك كان قبله حال آبائه الخلفاء، وعـزز ابن فضلان هذه الفكرة ان استشـهد بقول الرسـول الكريـم (ص) : « لا تطروني كما أطرت النَّصَارَى عيسَى بنَ مريـمَ، فإنَّما انا [عبد فقولوا] عبـد الله ورسـوله))، عند ذلك سـأل ملك البلغار ابـن فضلان كيف يجوز ان يخطب له ؟ فأجابه ان تكون الخطبة باسـمه واسـم أبيه، وهنا أثار ملك البلغار مسألة مهمة هي ان اباه كان كافرًا، لذا فهو لا يُحـب أَنْ يذكر اسـمه على المنبر، فضـلًا عن أنه (الملـك) لا يحب ذكر اسـمه لأن الذي سـماه كان كافـرًا ويقصـد اباه، وهنا سَـأَلَ ملـكُ البلغار ابن فضلان عن اسـم الخليفة فأجابه : جعفر، فسـأل هل يجوز أَنْ يَتَسَمَّى بِاسْمِهِ ؟ فَأَجَابَهُ ابنُ فضلان: نعم، فقال الملك : « قد جعلتُ اسـمي جعفرًا، واسم ابي عبد اللـه»، وطلب من ابن فضـلان أَنْ يُوَضِّحَ ذلـك للخطيـب الذي يخطـب في المجلـس للخليفة العباسي وللملك البلغـار، ففعل ذلك، فكان الخطيب يخطب للملك بقولهِ : « اللهم وأصلح عبدك جعـفر بن عبد الله أمير بلغار مولى أميـر المؤمنين» .

يتضـح لنـا ممـا سـبق أَنَّ ابـنَ فضـلان شرع بتطبيق تعاليم الإسـلام وتصحيح ما كان سـائدًا بشـكلٍ خاطئ في بلاد البلغار قبـل وصول البعثة التـي تَرَأَّسَـهَا، فقـد بَسّـط تعاليم الإسـلام حولَ تسـمية الملك وألقابه التي تُقرأ على المنبر، وجَسّـد مبادئ التواضع والبساطة التي يَتَحَلَّى بها الخلفاءُ العباسـيون من خلال اقتدائهم بالرسـول الكريم (ص)، إذ إن الرسول (ص) والخلفاء إنما هم عبيد الله سبحانه وتعالى وخلفائه في الأرض، كما أَنَّ ملكَ البلغار غَيّر اسمَهُ إلى اسم عربي إسلامي، وطلب أن يخطب الخطيب بِاسْمِهِ هذا : (جعفر بن عبد الله) على المنبر، وهذا الاسـم كان تيمنًا واعتزازًا باسـم الخليفـة العباسي المقتدر بالله، وهكذا بدأ انتشـار الاسـماء العربيـة الإسـلامية في بلاد البلغـار، وقد ذكرنا أن رسول الملك البلغاري الى الخليفة العباسي اسمه : عبد الله بن باشتو الخزري.

مـا يثير الانتباه تَمسـك ملـك البلغـار واعتزازه بالدين الإسـلامي بشكل وثيق، إذ رَفَضَ أَنْ يُسمَّى بِاسْـمِ ابيـه لأنه كان كافـرًا، كما رفـض أن يبقى اسـمهَ ؛ لأن أبـاه الكافر هو الذي سـماه به، وهذا ما جعلَ البعضُ يميلُ إلى القول بأن الإسـلام دخل بـلاد البلغار قبيـل رحلة ابن فضـلانَ، أو أن الملك البلغاري أسـلم عند وصول ابن فضلان [54] ، وهذا

(52) رسالة ابن فضلان ص117-115.
(53) المصدر نفسه ص118-117، ينظر أيضًا : الحموي. معجم البلدان 487-486/1.

(54) ذكـر الحمـوي أَنَّ ملك بلغـار وأهلها أسـلموا أيام المقتـدر بالله، ولم يقفْ على السـبب في إسـلامهم. معجم البلدان 486/1، حسـن. الرحالة المسلمون ص27 (وذكر أَنَّ الإسلامَ كان منتشرًا بينهم قبل هذه الفترة). الداقوقي. دولة البلغار ص208-207.

غـير صحيح، بل إن الإسـلام كان معروفًا ومنتشرًا في تلـك البلاد قبـل وصول ابن فضلان الـذي عَزّزَ مسيرته وهَذّبَ كثيرًا من القيم والعادات التي كانت سـائدة بشـكل خاطئ وغير صحيح ؛ بسبب عدم التطبيق الصحيح لقيم ومبادئ الإسلام الحنيف.

وبخصوص انتشـار الاسـماء العربية الإسلامية بين البلغـار، ذكر ابن فضلان [55] أن رجلًا اسـمه (طالوت) اسلم على يديه، فسماهُ : (عبد الله)، لكنه طلب من ابن فضلان ان يسـميه على اسـمه قائلًا : «أريد أن تسـميني باسـمك محمدًا»، فاستجاب له ابن فضلان، وأسـلمت امرأته وأمه وأولاده، وسموا كلهـم محمـد، وأضـاف ابن فضـلان انـه علمه : (الحمد لله) أي سورة الفاتحة و(قل هو الله أحد) أي سورة الاخلاص، فكان فرحه بهاتين السورتين اكثر من فرحه لو صار ملكًا على الصقالبة.

ويتضح لنا هنا انتشـار الاسـماء العربية، فهذا الرجل الذي أسـلم وسـمَّاه ابن فضلان : عبد الله، طلب ان يتسـمى على اسـم ابن فضـلان (أحمد) وهـو من اسـماء الرسـول الكريـم (ص) اعتزازًا واجلالًا لقدسـية الرسول محمد (ص)، اما تسمية زوجته واولاده كلهم باسـم محمـد، فهذا يدل على أن هـذه الأسرة أصبحـت مسـلمة، يمكـن أنْ تعد نفسـها (مُحمدية)، أي أنها اعتنقت الإسـلام دين الرسـول الكريـم محمـد (ص)، واقترنت بِاسْـمِهِ تيمُّنًا واعتزازًا به، وكان ذلك الرجل فَرحًا ومَسرورًا إلى درجـة كبـيرة ؛ لأنَّ ابنَ فضلان عَلّمه سـورتي الفاتحة والإخلاص، وعبَّرَ عَن فَرَحِهِ الشديد بهاتين السورتين أكثر مِن فَرَحِهِ لو صارَ ملكًا.

وكان مـؤذن ملك البلغار يثنّـي الإقامة اذا أذَن، فأخبره ابن فضلان أنَّ مولاهُ الخليفة العباسي يفرد في داره الإقامة، ويتضح من طريقة الأذان ان البلغار كانـوا على مذهب ابي حنيفة الذي كان سـائدًا بين أتراك آسـيا الوسـطى، بينما كان ابن فضلان على مذهـب الشـافعي، ومع ذلك قال للمـؤذن : « اِقبلْ ما يقوله لك، ولا تخالفه»، واستمرَّ المؤذنُ على ذلك أيامًـا، أي إفراد الإقامة كمـا اراد ابن فضلان، لكن البلغـار وملكهم ظلوا متمسـكين بالمذهب الحنفي طوال تاريخهم.

وقـد أثـار موضـوع المال الـذي كان مقـررًا ان يحصـل عليـه ملك البلغـار من ابن فضـلان لبناء المسـجد والحصن، اختلافًا جديدًا بين ابن فضلان وملـك البلغـار، يتضح لنـا ذلك من خـلال حوار ديني طريف جرى بينهما، فبعدما أيقن الملك عدم حصولـه على ذلك المال تقدم الى المـؤذن طالبًا منه أن يُثنـي الإقامة ففعـل، وأراد أنْ يجعـلَ من هذا الموضوع مدخلًا للمناظـرة، لكن ابن فضلان نهى مـؤذن الملك من التثنية في الإقامـة للصلاة، فعرفَ الملكُ ذلك، وأَحضَرَ ابنَ فضلان وأصحابَهُ .

سـأل ملكُ البلغار ابنَ فضلان بواسـطة المترجم رأيـه حول مؤذنـين أفرد أحدهما وثنَّـى الآخر، ثمَّ صلَّى كلُّ واحـد منهما بقوم هَل تجـوزُ الصلاة أم لا ؟ أجابَـهُ ابنُ فضلان إنَّ الصلاةَ جائزةٌ، فسـأله الملك باختـلاف أم بإجماع، فأجابـه : بإجماع، ثم سـأله الملك رأيـه في رجل دَفَعَ مـالًا لأقوام ضعفاء محاصرين مسـتعبدين فخانوه، أجابه ابن فضلان ان هـذا لا يجـوز وهؤلاء قوم سـوء، فسـأله الملك باختـلاف أم بإجماع، قال ابـن فضلان : بإجماع، فقال الملك للمترجم ان يخبر ابن فضلان ان الخليفة لو ارسل جيشًا هل يقدر عليه ؟ أجابه ابن فضلان : لا وكذلك لو قام بذلك العمل امير خراسان، وذلك بسـبب بُعد المسافة وكثرة قبائل الكفار في الطريق بينهما، قـال ملك البلغار للترجمان أن يُوَضِّحَ لابن فضلان أنـه في مكانه البعيد هـذا خائفٌ من مولاه أمـير المؤمنـين الخليفـة العباسي ؛ لأنـه يخاف أنْ يَصلَ الخليفة عنه شيئًا يكرهُه فيدعو عليه ويهلكه في مكانـه، والخليفـة في مملكته وبينهما مسـافة شاسعة .

أراد ملـكُ البلغار أن يُعبر عن اعتزازه وتمسُّـكه الوثيق بالخليفة العباسي، كما يؤكد اعتقاده بقدرة الخليفـة وقوتـه الروحية التي تلحـق الضرر بمن يسيئ التصرف معه، وبذلك أوقع ملك البلغار اللومَ

(55) الرسالة ص135.

على ابنِ فضلان وجماعَتِـهِ بخصوصِ عَدَمِ إيصال مال الخليفة إليهِ لبناء المسـجد والحصن الذي أراد بناءَه لِدَرءِ خَطَر هُجُومِ الخَزر ضِدّه، فقال مخاطبًا إياهم بهذا الصَّدَدِ : « وأنتم تأكلون خبزه وتلبسون ثيابه وترونه في كل وقتٍ خُنتُمُوهُ في مقدار رسـالة بعثكم بها إليّ، إلى قوم ضعفى، وخنتم المسلمين، لا أقبـل منكم امر ديني حتـى يجيئني من ينصح لي فيما يقول فإذا جاءني إنسـان بهذه الصورة قبلت منـه »، وعلَّقَ ابنُ فضلان على هـذا القول بأن ملك البلغار قـد ألجمنا، أي : أسـكتنا لأنهم احتاروا في كيفيـة الإجابة عليه ثم انصرفـوا من عنده، وهكذا يبـدو ملك البلغـار شـديد الاهتمام بأمـر المال لا بسـبب حاجته وانما عدّ ذلك المال مقدسًـا ويبعث فيهـم القـوة اذا بُنـيَ الحصن ضـد أعدائهم من الخـزر خاصة بذلك المـال، اعتقادًا بقـوة الخلافة التي سـتزيد قوتهم وبأسـهم، فهم ليسوا ضعفاء بل إنهم ضعفاء بالنسـبة للخليفة العباسي ؛ لأنهم رعيتـه وتبعيتـه في الديـن خاصـة، واضـاف ابن فضلان أنَّ الملكَ بعد كلامه هذا كان يُفضله ويُقربه ويُباعد أصحابه إلى درجة أنَّهُ أَخَذَ يُسَمِّيهِ « أبا بكر الصديـق »[56]، ولعـلَّ ذلـك نابـع من صـدق ابن فضـلان وتمسـكه بدينـه وعقيدته، وعـدم قدرته على إحضار المال الذي تأخر لأسـباب قاهرة خارج إرادتـه، ويرجح أنَّ هذه التسـمية يمكن أنْ تكون ان كنيـة ابن فضلان هـي ابو بكـر، فأضاف اليه الصدّيق[57] .

كان أشـد مـا أَثَـارَ اسـتياءَ ابن فضـلان وعدم ارتياحه انتشار عادة سيئة في مجتمع البلغار، هي نزول الرجال والنسـاء الى النهر واغتسالهم جميعًا عُـراة، لا يسـتتر بعضُهـم عـن بعض، وقد أشـار الى العقوبـات الرادعـة ضد من يزنـي من الرجال والنسـاء، وعـلى الرغـم مِـن مُحَاوَلَتِـهِ منعهم من هذه العادة القبيحة، واجتهاده في اسـتتار النسـاء من الرجـال في السـباحة إلا أنَّهُ لـمْ يُوَفَّق في ذلك، فقال: «فما استوى لي ذلك «، وكان البلغار يقتلون السارق كما يقتلون الزاني[58] .

اسـتمر ابن فضلان يواصل أداء رسـالته الدينية في بـلاد البلغـار، فقـد أشـار إلى أنـه زَارَ إحـدَى مَجموعـاتِ البلغار المعروفين بـ : البرنجار، لعلَّهُ يقصد: المونغول[59]، وكان عددهم بحدود خمسـة آلاف نسـمة مـن الرجال والنسـاء دخلوا الإسـلام جميعًا، وبنوا لهم مسـجدًا من خشب يُصلّون فيه، ولا يعرفونَ القِـرَاءَةَ، وأضاف أنه علَّـمَ جماعةً ما يُصلُّونَ بـه [60]، أي علَّمَهُم قراءة السُّـوَرِ القرآنية وكيفيَّة أداء الصَّلاةِ .

وكان ابن فضلان يغضب غضبًا شـديدًا لانتهاك حرمة المرأة المسـلمة من قبل ملك الخزر اليهودي، واغتصابـه لها للزواج منـه، إذ كان يأخذ ابن ملك الصقالبة (البلغار) رهينة عنده، ولما عرف بجمال ابنـة ملك الصقالبة توجـه لخطبتها فرفض أبوها ذلك، لكنه أخذهـا غصبًا على الرغم من انه يهودي وهـي مسـلمة ، فماتت عنـده، وكانت للملـك بنتًا أخـرى (أختها)، فتوجه ملك الخزر لخطبتها، لكن أباها زوّجها سِرًّا من أحد ملوك (أسـكل) التابعين له ؛ خشـية ان يغتصبها ملـك الخزر اليهودي كما فَعَل بأختها أوَّلًا ؛ لذلك أرسـلَ ملكُ البلغار رسـولًا الى بغداد يطلـب من الخليفة العباسي المقتدر بالله أنْ يسـاعدَهُ بالمال اللازم لبناء حصن يتحصَّن فيه خَوفًا من ملك الخزر [61] .

يبـدو لنـا من خـلال رسـالة ابن فضـلان عدم تحقيـق هذا الهـدف أي بناء الحصـن، إذ لم تشر الرسـالة الى هذا الأمـر بوضوح، بل إنَّ مـا أَخبَرَنَا بِهِ ابـنُ فضلان أكثر من مرة يؤكِّدُ مـا ذَهَبنا إليه،

(56)يُنظـر عـن هـذا الموضـوع : ابن فضلان . الرسـالة ص122–120 ، د. جمـال رشـيد أحمـد . مع ابن فضلان ص345 ، هربك . بلغار ص605 .

(57) الدهان . رسالة ابن فضلان ، مقدمة الرسالة ص27، ص122 هامش.

(58)الرسالة ص134 ، الدهان . مقدمة الرسالة ص26 .

(59)الدهان . رسالة ابن فضلان ص135 هامش .

(60) الرسالة ص135 .

(61) المصدر نفسه ص145 ، الديوة جي . الصلات ص5

فقـد ذكر أنَّ ملك البلغار اسـتدعاه بعد ثلاثة ايام مـن وصوله مع الوفد وقراءة كتـاب الخليفة حول امر اربعة آلاف دينار، وما كان بشـأنها من الحيلة التـي عملهـا الفضل بن مـوسى النصرانـي وكيل الوزير ابو الحسن علي بن الفرات من أموال ضيعة ارثخشمثين في بلاد خوارزم، وتسليم المال الى أَحمد بن موسى الخوارزمي الذي كان يلتحق بابن فضلان ويواصل سـيره الى بلاد البلغار، لكن يبدو ان حيلة الفضل النصراني قـد نجحت في القبض على أَحمد الخوارزمـي، فاعتلَّ في الطريق ومنع من الحصول عـلى المـال وإيصالـه، وبعـد وصول ابـن فضلان ومقابلته ملك البلغار قدَّمَ الأخيرُ إليه كتابَ الخليفة المقتدر بالله وكتاب الوزير حامد بن العباس طالبًا منـه المال الـذي ذكره فيهمـا الملـك ! فأجابه ابن فضلان أنَّ المالَ تعذَّر جمعهُ وضاق الوقت فتركناه (أَحمد بن موسى الخوارزمي) ليلحق بنا، فردَّ عليه الملـك أن مجيئهـم وصرف الخليفـة العباسي المال الكثـير عليهـم لإيصال ذلك المال إليـه لبناء حصن يمتنـع به مـن اليهود لـم يحقق الهدف المنشـود، ليخلصه من استعباد ملك الخزر، وأخبَرهُ أَنَّ الهديَّةَ يمكن ان يحملها غلامه أي رسول الخليفةٍ، فأجابه ابن فضلان أنَّ ذلك صحيحًا وأنهم اجتهدوا، فقال الملـك للترجمـان : « قل له أنا لا أعـرف هؤلاء، إنَّما أعرفـك انت، وذلـك أنَّ هؤلاء قوم عجم ... ولسـت أطالـب غيرك بدرهم فاخرج مـن المال فهو أصلح لـك»، وأضافَ ابنُ فضلان أنه خـرج من عندِ الملك مذعورًا مغمومًا، وكان رجلًا له منظر وهيبة، بدين عريض، وبعد خروجه جَمـع أَصحابه وعرَّفهم ما جَرَى بينـه وبين الملك البلغـاري، واوضح لهم انه كان يحذر من هذا الأمر ! [62] .

واللقـاء الثانـي حول هذا الموضـوع ذكرناه من خـلال المناظرة التي جرت بين ابـن فضلان وملك البلغـار حول الإقامة في الأذان، وانسـحب النقاش الى موضوع المال الذي قرر الخليفة إرساله إلى الملك ليبنـي به حصنًا ضد اليهود ملوك الخزر، وفي ذلك الحـوار وَصَفَ ملكُ البلغار ابـنَ فضلان وجماعتَهُ بالخيانـة في عدم الإيفاء بتطبيق ما جاء في رسـالة الخليفـة الى الملك حول المال المقرر اسـتلامه لبناء الحصن ضد الخزر اليهود [63] .

نسـتنتج مما سـبق أنَّ ابنَ فضلان لم يسـتطعْ ايصال المال اللازم من ضيعة ارثخشـمثين الى ملك البلغار لأسـباب وظروف قاهرة خارج إرادته [64]، ودليلنـا على ذلـك ما ذكرنـاهُ من خلال رسـالته، فضلًا عن أنه سـأل ذات يوم ملك البلغار حول أمر طلب المال مـن الخليفة العباسي لبناء الحصن ضد غارات ملك الخزر اليهودي، إذ قال له ابن فضلان: « مملكتك واسعة وأموالك جمة وخراجك كثير، فَلمَ سـألتَ السـلطان [الخليفة] أَنْ يبني حصنًا بمالٍ من عنده لا مقدار له».

نسـتنتج من سـؤال ابن فضلان عدم توفر ذلك المال لدى الخليفة العباسي، الذي أوعز باستحصاله مـن ضيعة ارثخشـمثين في بلاد خـوارزم، فأجابه ملـك البلغار قائـلًا : « رأيتُ دولة الإِسـلام مُقبلة، وأموالهـم يؤخـذ من حَلهـا، فالتمسـتُ ذلك لهذه العلـة، ولو أني اردت أن ابني حصنًا من اموالي من فضة أو ذهب لما تَعَذَّرَ ذلك عليّ، وإنما تبركتُ بمال

(62) الرسالة ص119-120 .

(63) الرسالة ص120- 122 .
(64) يُنظر : رسـالة ابن فضـلان ص77-78 ، بارتولد . بلغار ص594 .
(65) الرسالة ص146 ، الدهان . مقدمة الرسالة ص23 ، الديوة جي . الصلات 5 .

امير المؤمنين، فسألتهُ ذلك» [65] .

يتضح لنا من خلال هذه النصوص أنَّ ملكَ البلغار اعترف بقوة الدولة العباسية وهيمنتها، وهو أمرٌ يُفْخَرُ ويُعْتزُّ به شديد الاعتزاز، وأن أموالها شرعية فهي أموال حلال، وبمقدور الملك ان يبني ذلك الحصن من امواله من الذهب أو الفضة ان اراد ذلك، لكنه اراد ان يتبرك بمال الخليفة العباسي، فطلب منه ذلك . إن هذا الأمر يدعو الى الزهو من جانب بغداد، ويوضح هيبة الخليفة والخلافة، ويرسم مكانتهما في أوروبا وقتذاك، خاصة حين يستنجد به ملك مملكة واسعة ويسعى معه الى حلف ثقافي ديني عسكري، وهذا يؤكد ان سمعة بغداد في الخارج في عصر الخليفة المقتدر بالله كانت جيدة بل وعظيمة، يتهافت الملوك والامراء عليها ليعقدوا معها أجمل الصِلات وأوثق التحالفات، حتى إنَّ الصقالبة – وهم سكان شمال أوروبا على أطراف نهر الفولجا وعاصمتهم على مقربة من مدينة قازان اليوم في خط يوازي مدينة موسكو – طلبوا عونَ الخلافة العباسية ومساعدتها [66]، وعلى أي حال فَإنَّ ما قام بِهِ ابنُ فضلان مِن أَعمالٍ في مَجَالِ التربية والتثقيف بين مختلف الشعوب التي زارها خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، دليل على الدور الذي انجزته مدينة بغداد في نقلها الحضارة وتنظيمها للقيم الروحية الإنسانية في مختلف بلاد العالم[67] .

بعد انتهاء مهمة السفارة التي شارك فيها ابن فضلان عاد يصف في رسالته هذه رحلته، كما يكتب السفراء تقاريرهم اليوم بعد القيام بمهماتهم، وجاءت رسالته بأسلوب بديع رائع ممتع مليء بالغرائب والعجائب وأَطراف المُشَاهدات، تصور حال الأَقوام والبلاد وعاداتهم المدنية والاجتماعية والدينية، وترسم الطريق اليهم، والفوارق التي تفصل بين الشرق والغرب، وهذه الرحلة جديرة بالدراسة والتعليق، تَصِفُ رأي رجل مسلم بتلك الربوع من جانب واحد، ولا نجد ما يقابلها في كتب الروس والصقالبة من أثر لذلك العهد، فهي وثيقةٌ تاريخية، ترفع للعرب شأنًا في التأليف والوصف، وذخيرة من ذخائر تُراثنا المدهشة النافعة[68] .

وتجدرُ الإِشَارَةِ إلى أَنَّ خَاتِمَةَ الرسالة مفقودةٌ، وأَنَّ النسخَةَ المخطوطةَ التي اكتُشِفَتْ في مدينة مشهد (طوس)، تُمكننا لأول مرة من الحكم على الرسالة في صورتها الكاملة، ومن المستحيل الجزم أَنَّ جميع المسائل المتعلقة بمتن الرسالة قد حُلت نهائيًّا . أَمَّا تاريخ وخط سير الرجعة فليس معروفًا لدينا ؛ لأن خاتمة الرسالة امتدت اليها أيدي الضياع [69] .

المحور الثالث

د – أهمية رحلة ابن فضلان ونتائجها:

ذَكَرَ بارتولد [70] المصادر المتعلقة ببلاد البلغار (الروس)، وعَدَّ ابنَ فضلان عمدةَ المصادر عن البلغار ؛ لأَنَّهُ اشترك في الوفد الذي أرسلَهُ الخليفةُ العباسيُّ المقتدرُ بالله سنة 309هـ/921م ؛ إذ أُوكِلَتْ إليهِ مهمَّة تعليم البلغار الدين الإِسلامي،

(66)الدهان . مقدمة رسالة ابن فضلان ص13–12 .
(67)أَحمد ، د. جمال رشيد . مع رحلة ابن فضلان ص348. ويُنظر : عن إسلام الروس : شاكر لعيبي . رحلة ابن فضلان ، هوامش ص 102–100 .

(68) الدهان . قدماء ومعاصرون ص52 .
(69) كراتشكوفسكي . تاريخ الأدب الجغرافي العربي ق1/187 ، وذكر الحموي ان ابن فضلان عاد الى بغداد . معجم البلدان 1/486 ، ولم يحدد طريق العودة .
(70) بلغار ، دائرة المعارف الإسلامية 7/590، 600 .

مما يوضح دوره في الجانب الديني للوفد .

وذَكَـرَ كراتشكوفسـكي[71] أن ابـن فضـلان تبوَّأَ المكانةَ الأُولَى بين الرحالين، سـواء من الناحية الزمنيـة أو الأهمية الذاتية ؛ بسـبب رسـالته التي تَجَـدَّدَ الاهتمـامُ بهـا في الأعوام الأخـيرة بالدرجة نفسـها التي تمتعت بها أول مرة منذ أكثر من مئة وعشرين عامًا، فقد قدَّمتْ لنا صورةً حيَّةً للظروف السياسـية في العالم الإسلامي، والعلاقات بين بلاد الإسـلام والبلاد المتآخمة لها في آسـيا الوسطى أو الأصقـاع النائية التي تمل أطـراف العالم المتمدن وقتذاك مثل حوض الفولجا، كما أن الرسالة تحفل بمادة اثنوغرافية قيمة جدًّا ومتنوعة بصورة فريدة، وهـي تتعلَّق بعـدد من القبائـل التركيـة البدوية المستقرة في آسيا الوسطى، وعدد من الشعوب التي أدت دورًا أساسـيًّا في تاريخ أوروبا الشرقية، مثل : البلغـار والروس والخزر، فضلًا عن قيمتها الأدبية وأسلوبها القصصي السلس ولغتها المصورة التي لا تخلو من بعضِ الدعابة غير المقصودة.

ترجـع أهميـة رسـالة ابـن فضـلان في أنها زودت التاريـخ العالمي بشـذرات مهمة عن أنماط معيشـة الشعوب قلما سُـجِّلتْ، وبذلك سَدَّتْ ثغرةً تاريخيـة في هذا المجال، وتعد رائدًا في الإشـارة إلى تاريخ الشـعوب الصربيَّة والـروس منهم على وجه الخصـوص، وبذلـك أوضحت هـذه الرحلة علاقة العرب بالآخر، وفتح مجال الاتصال مَعَ الشُّـعُوبِ الأُخـرى النَّائية عن بلاد العـرب، وتبادل المصالح والمنافع وعناصر الحضارة بينهما [72].

إنَّ قِـرَاءَةَ رحلة ابن فضلان تمنحُ المرءَ متعة نـادرًا ما يتلقَّاها في عملٍ من النوع الأدبي نفسـه، وسيكتشف القارئ الكريم هذه المتعة عندما يشرع في قراءتها بتمعنٍ وأناةٍ.

المصادرُ والمراجعُ

- ابن رسته، أبو عليّ أحمد بن عمر (ت 291هـ/904م)

1- الأعلاق النفيسة، مطبعة بريل، ليدن، 1891م.

- ابن فضلان، أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد (ت بعد 309هـ/921م).

2- رسـالة ابـن فضلان في وصف الرحلـة إلى بلاد الترك والخـزر والـروس والصقالبـة سـنة 309هـ/921م، تحقيـق د. سـامي الدهـان، المطبعة الهاشـمية، دمشـق، 1379هـ/1959م .

- رحلـة ابن فضلان إلى بلاد الـترك والروس والصقالبة، تحريـر وتقديـم : شـاكر لعيبـي، دارُ السـويدي للنـشر والتوزيع، أبو ظبي، المؤسسـة العربية للدراسـات والنشر، بيروت، ط 1، بيروت، 2003م.

- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق بن محمد المعروف بالوراق (ت 380هـ/990م).

3- كتـاب الفهرسـت في أخبـار العلمـاء والمصنفين من القدمـاء والمحدثـين وأسـماء كتبهم، تحقيق رضـا تجدد، طهران، 1391هـ/1971م.

- بارتولد، فاسيلي (ت 1930م).

4- بلغار، دائرة المعارف الإسـلامية، مجلـد (7)، إعداد وتحرير إبراهيم زكي خورشـيد، وزميليه، كتاب الشـعب، القاهرة، د. ت .

- د. جمال رشيد أحمد .

5- مع رحلة ابن فضلان إلى مدن البلغار والتوران تشـع بغـداد معالم حضارتهـا إلى مختلف البلـدان، بحث ضمن كتـاب : بغـداد في التاريـخ، دار الحكمـة للطباعة والنشر، بغداد، 1991م.

- حسن، د. زكي محمد .

6- الرحالة المسـلمون في العصور الوسـطى، دار الرائد العربي، بيروت، 1401هـ/1981م.

(71) تاريخ الأدب الجغرافي العربي 1/186-187 .

(72) يُنظـر عن أهمية رحلة ابن فضلان : الدهان ، مقدمة رسـالة ابن فضلان ص 34-29، شـاكر لعيبـي ، مقدمة رحلة ابن فضلان ، ص 33-30.

- الحموي، أبو عبد الله شــهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت 626هـ/1228م)
7- معجم البلدان، دار صادر، ط 8، بيروت، 2010م.
- الداقوقي، د. حسين عليّ .
8- دولــة البلغــار، المســلمين في حوض الفولجــا، مجلة (المؤرخ العربي)، العدد 21، بغداد، 1986م.
- د. الدهان، محمد سامي .
9- قدماء ومعاصرون، دار المعارف، القاهرة، 1961م.
- الديوة جي، سعيد .
10- الصلات بين العباسيين والبلغار، مجلة (الأقلام)، ج 5، السنة (6)، بغداد، 1970م.
- العبادي، فاضل كاظم .
11- العلاقــات التجاريــة والثقافية العربية الإســلامية بشرق أوربة خلال العصور العباســية، (رســالة ماجستير في التاريخ الإسلاميّ)، قسم التاريخ / كلية الآداب، جامعة بغداد، 1422هـ/1991م.
- القزوينــي، زكريــا بــن محمــد بــن محمــود (ت 682هـ/1283م).
12- آثــار البلاد وأخبار العبــاد، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1380هـ/1960م.
- كراتشكوفســكي، أغناطيــوس يوليانوفتــش (ت 1951م).
13- تاريخ الأدب الجغرافي العربي، القسم (1)، ترجمة : صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة، 1963م.
- مصطاف، د. ثامر نعمان .
14- زكريا القزويني ومساهماته العلمية، دار تموز، ط 1، دمشق، 2012م.
- هربك، أي .
15- بلغــار، دائــرة المعــارف الإســلامية، مجلــد (7)، القاهرة، د. ت .
- هنتس، فالتر .
16- المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة : الدكتور كامل العسلي، مطبعة القوات المسلحة الأردنية، عمان، 1970م .

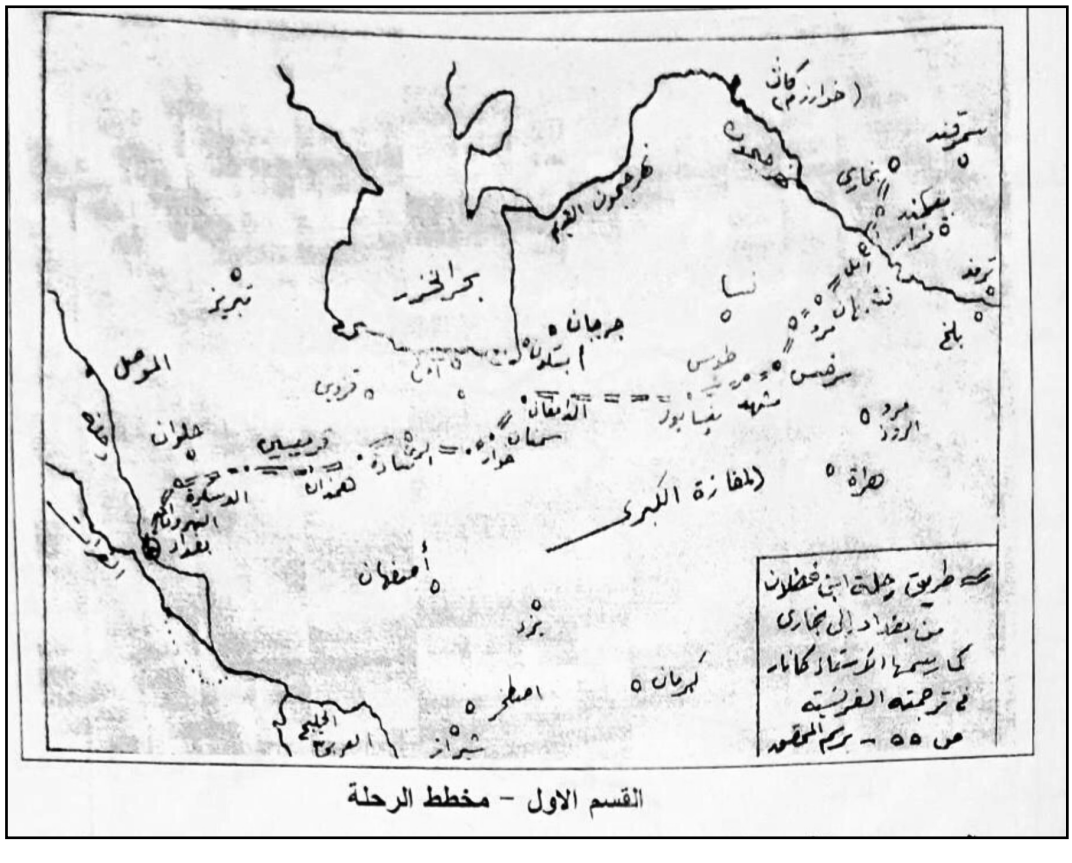

القسم الاول – مخطط الرحلة

بحيرة رودولف
أبيضا
البحيرة البيضاء
تشاد
شاغان
البحارة
هرار
جرجاية
أوكمبتين
جرجار
بحار آمن